التحولات الاجتماعية للمدينة الصحراوية وتمظهراتها في الانتماء والهوية الثقافية

عمر حمداوي
جامعة ورقلة (الجزائر)
سهام عجاس
جامعة الجزائر (الجزائر)

ملخص

إن كل المجتمعات تخضع لتحولات سواء أكانت إجتماعية، إقتصادية أو غير ذلك ونفس الشيء بالنسبة للمجتمع الجزائري بصفة عامة بما فيه المدينة الصحراوية بصفة خاصة، وهذه التحولات تتمظهر في الجانب العمراني والتخطيط لهذه المدن، حيث ازداد الحزام العمراني في الكثير من المدن الصحراوية توسعا، وتوسعت معه الأحياء السكنية، وقد تم تصميم هذه السكنات والأحياء في أغلبها بوضعية مختلفة تماما عن الطراز المعماري التقليدي، كما تتمظهر هذه التحولات في الأفراد من خلال ثقافة الأسرة، العلاقات التفاعلية بين الأسر وأيضا على مستوى الهوية الثقافية والإنتماء في القيم التي يمتلكونها مع العلم أننا في عصر تسوده وسائل الإعلام والاتصال المتطورة وعصر السرعة حيث أصبح العالم أجمع مجرد قرية صغيرة، ضف إلى ذلك مواقع التواصل الاجتماعي والجيل الثالث من الهاتف النقال...الخ، كلها عوامل تؤدي بالفرد إلى التخلي تدريجيا وتلقائيا من قيمه ومبادئه التي نشأ عليها والسعي وراء الجديد دون مراعاة للأبعاد الثقافية والحضارية لمجتمعنا وهنا نقصد المدينة الصحراوية، مع الابتعاد عن العنف بكل أشكاله و البحث عن قيم الوسطية والتسامح والتعاون والتكامل مع الآخر.

الكلمات المفتاحية: التحول، المجتمع، المدينة الصحراوية،الهوية،الثقافة، الانتماء.

مقدمة: يعد موضوع تحولات المدينة من أهم المواضيع المطروحة حديثا، ولو كان مدخلها قديم قدم الإنسان بنفسه فهي مرحلة كغيرها من المراحل التي تمر بها، تمتاز بمميزات خاصة كالضعف و الهشاشة والعجز وتراجع الأداء الفسيولوجي و البيولوجي للإنسان، و ما جعل مدخل هذا الموضوع جديد هي تلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع ومست أشكال ومقاربات التحول الإجتماعي و الممارسات الحديثة، فقد كان الناس في البيئات القديمة والريفية على حد سواء على قدر كبير من المكانة والمسؤولية، حيث كانت تناط لهم جل الأدوار الكبيرة، ويشغلون في وسطها رأسمال رمزي محترم، فسلطة القرار بيدهم وسلطة الأمر والنهي والتشريع كلها بيدهم مهما كبر أو صغر ذلك التنظيم،(من مجلس المدينة كالجماعة إلى الأسرة)، وكانوا يحضون عبرها بالهيبة والوقار والمكانة المرفوعة، وهذا ما يميز الأسر التقليدية.

إلا أن التحولات الاجتماعية التي مست المجتمع، قلصت من حجم تلك المسؤوليات والأدوار المنوطة بالأفراد، فتقلصت معهم أدوارهم ومكانتهم داخل هذه التنظيمات الحديثة، الاقتصادية أو السياسية و غيرها، التي غالبا ما تسند المسؤولية والمناصب إلى ذوي المستويات التعليمية الجيدة و إلى الكفاءة والخبرة، بدلا عن الإقامة و السكن في المؤسسات والتنظيمات القديمة التي كانت من نصيب كبار السن.

وهذه التحولات مست الفرد حتى داخل الأسرة، والتي طرأت على المجتمع أثرت على عدة جوانب بداية من تغير نمط العلاقات داخل الأسرة، و نقص أشكال التضامن والتكافل عن ما مضى، فأثرت بشكل أو بآخر على الممارسات الحضرية داخلها، ضمن كل ما سبق نطرح الإشكالية البحثية التالية :

ما هي مظاهر التحولات التي مست المدينة الصحراوية الجزائرية وأثرها على تغيير قيمة الهوية والإنتماء للفرد داخل المجتمع الجزائري؟

أولا: أهم المفاهيم المتعلقة بالدراسة:

- **تعريف التغير الإجتماعي:**

"هو دراسة التحول أو التعديل الذي يطرأ في طبيعة و مضمون و تركيب الجماعات و النظام، وكذا في العلاقات بين الأفراد و الجماعات،و كذا التغيرات التي تحدث في المؤسسات أو في التنظيمات أو في الأدوار الإجتماعية." [1]

و يقول ميشال كروزي:"التغيير ليس مرحلة منطقية للطور الإنساني و ليس لوضع نمط إجتماعي أفضل لأنه أكثر عقلانية، وليس كذلك نتيجة طبيعية للصراع بين الأفراد...التغيير أولا هو تحول في نظام الأفعال"[2]. ويقول فتحي عيانه "أبرز مشكلات التحول هو ما شهدته القرية من تغير ثقافي على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين، و أصبح الصراع بين التقليدية والحداثة منعكسا على نمط الحياة و سلوك البشر و قيمة العمل اليدوي الزراعي،"[3]

- **تعريف المجتمع:**

المجتمع مجموعة من الناس التي تشكل النظام نصف المغلق والتي تشكل شبكة العلاقات بين الناس، المعنى العادي للمجتمع يشير إلى مجموعة من الناس تعيش سوية في شكل منظّم وضمن جماعة منظمة. والمجتمعات هي الأساس التي ترتكز عليه دراسة العلوم الاجتماعية. كما أنه يعبر عن مجموعة من الأفراد تعيش في موقع معين تترابط فيما بينها بعلاقات ثقافية واجتماعية، يسعى كل واحد منهم لتحقيق المصالح والاحتياجات . وإلى حد ما هو متعاون ، فمن الممكن أن يُتيح المجتمع لأعضائه الاستفادة بطرق قد لا تكون ممكنة على مستوى الأفراد، و كلا الفوائد سواء منها الاجتماعية و الفردية قد تكون مميزة وفي بعض الحالات قد تمتد لتغطي جزءاً كبيراً من المجتمع.

تقابل كلمة مجتمع في الإنكليزية كلمة societyالتي تحمل معاني التعايش السلمي بين الأفراد، بين الفرد والآخرين..والمهم في المجتمع أن أفراده يتشاركون هموما أو اهتمامات مشتركة تعمل على تطوير ثقافة ووعي مشترك يطبع المجتمع وأفراده بصفات مشتركة تشكل شخصية هذا المجتمع وهويته.

في العلوم الاجتماعية، يميل العلماء لاعتبار "المجتمع "نظاما شبه مغلق semi-closed تشكله مجموعة من الناس، بحيث أن معظم التفاعلات والتأثيرات تأتي من أفراد من نفس المجموعة البشرية، مثل تونيز Ferdinand Tönnies يرى هنالك اختلافا عميقا بين الجماعة المشتركة والمجتمع ويعتبر أهم ما يميز المجتمع هو وجود بنية اجتماعية التي تتضمن عدة نواحي أهمها الحكم والسيطرة والتراتب الاجتماعي .

إنّ المجتمع البشري عبارة عن منظومة معقدة غير متوازنة تتغيّر وتتطوّر باستمرار، حيث تدفع تعقيدات وتناقضات التطور الاجتماعي الباحثين إلى الاستنتاج المنطقي التالي: إنّ أي تبسيط أو تقليل أو تجاهل تعدّدية العوامل الاجتماعية يؤدي حتماً إلى تكاثر الأخطاء وعدم فهم العمليات المبحوثة. وقد استقرّ الرأي على أنّ اكتشاف القوانين العلمية العامة مستحيل في مجال دراسات التطوّر الاجتماعي مسيطراً سيطرةً شاملةً على المجموعة الأكاديمية وخاصة بين الذين يتخصّصون في الإنسانيّات ويواجهون بشكل مباشر في بحثهم كل تعقيدات وتركيبات العمليات الاجتماعية . فطريقة بحث المجتمع البشري كمنظومة بالغة التعقيد هي أن نعترف بمستويات مختلفة من التجريد ومقاييس الزمن. فالمهمة الأساسية للتحليل العلمي هي إيجاد القوى الرئيسية التي تؤثّر على أنظمة معينة لاكتشاف القوانين العلمية المبدئية عن طريق التجرّد من التفاصيل وانحرافات القواعد. وعلى نطاق واسع، فإن المجتمع قد تُمثل بُنيته الأساسية اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو صناعية تكونها من مجموعة متنوعة من الأفراد. وقد يكون أعضاء المجتمع من مجموعات

[1] محمد عمر الطنوبي،**التغير الإجتماعي**،منشأة المعارف،الإسكندرية،1996،ص 52.

[2]Chevalier (p)et Laroche (h) **:culture d'entreprise (étude sur condition du réussite du changement)**، édition librarairie،France،1991،p46

[3] فتحي محمد أبو عيانه، **جغرافية العمران "دراسة تحليلية للقرية و المدينة"**، دار المعرفة الجامعية،ط 05، مصر،2008،ص 49.

عرقية مختلفة. المجتمع قد يكون مجموعة عرقية معينة كالساكسون أو قد يكون دولة قومية كالبوتان أو قد يكون تجمع ثقافي أوسع كالمجتمع الغربي .كلمة مجتمع أيضاً قد تشير إلى رابطة تطوعية منظمة من الناس معنية بالأعمال الدينية، الخيرية، الثقافية، العلمية، السياسية، الوطنية أو لأغراض أخرى .كلمة المجتمع أيضا لها معانٍ أخرى مجازية تشير إلى المجتمع الحيوي كمستوطنة النمل أو أي تعاون إجمالي، على سبيل المثال بعض الصيغ في الذكاء الاصطناعي4.

- **تعريف الثقافة:**

" إذا كان التمدن يرتكز على التقدم و التطور فإن الثقافة ترتكز على قانون الأخلاق و الإخلاص، حيث أنها أعطت مكان لكل سلسلة من التفسيرات الممكنة"5، حيث "أن الإهتمام بالموروث الثقافي يعبر عن البنية الأساسية و الأصلية لثقافة الشعب أو المجتمع كما أن الوعي بهذا الموروث الثقافي لا يكون له فاعلية حقيقية إلا إذا ارتبط بوعي مماثل للواقع، ذلك الواقع الذي من خلاله ما انفكت بعض المأثورات الشعبية المروية تلعب دور المصدر والملهم للقصائد الشعبية"6

وفي هذا المجال تقول الأستاذة بوزياني بأنها"حظيت في العصور الحديثة بتعريفات متعددة بقدر ما إن الساحة التي تعطيها النشاطات الثقافية تتسع لتشمل كل نواحي الحياة الإجتماعية أو تبطنها، لذلك أصبحت التعريفات التي تقدم مفهومها تتردد بين المفهوم الضيق مقتصرة بالدرجة الأولى على النشاطات العقلية العليا أو على الإنتاج الذهني العالي المستوى والمعترف به من قبل المتخصصين، كالتعريف الذي يحدد الثقافة بكونها «خصيصة لشخص متعلم قد نمس بواسطة التعليم ذوقه وحاسته النقدية وإدراكه» وبين مفهوم أقل ضيقا يدمج في الثقافة كل النشاطات الذهنية الشعبية والرسمية الحية والموروثة» و بين مفهوم ثالث أكثر شمولا يحاول أن يربط الثقافة بكل النشاطات الذهنية والجسدية التي تخلق لدى جماعة معينة طريقة متميزة في السلوك والحياة، و هذا المفهوم يختزل الثقافة في كونها مجموعة من القيم المادية والإجتماعية لأي شعب سواء كان متدينا أو لا» ولكن جميع هذه التعريفات تشترك في نقطة واحدة هي تحويلها الثقافة إلى مجموعة من المعارف والإعتقادات و القيم والأخلاق و العادات التي يكتسبها الفرد من جراء إنتمائه إلى جماعة من الجماعات"7.

- **تعريف الهوية:**

"يواجه الإنسان من حيث هو هوية متميزة بثوابت فطرية، موجة من عقيدة التحول و التغير، تدرجه باستمرار ضمن منظومة التغير، و تخضع ثوابت هويته للتحول الحتمي، كما لو أنه مفردة من مفردات الوجود الطبيعي و الفيزيقي، يخضع للقوانين الحتمية في سلوكاته وتصرفاته، و إذا كانت هذه العقيدة قد برزت في الفكر الفلسفي منذ العصر اليوناني القديم ، بل وحتى قبله في الثقافة المشرقية، فإنها ومنذ عصر النهضة و بروز العلوم و النظريات الحديثة و حتى اليوم صارت ممارسة بل و برمجة تستهدف تحويل عناصر هوية الإنسان الرمزية و التكوينية ومركزه في الوجود، و بذلك تخطت حدود المعرفة الفكرية النظرية إلى التطبيق، كما لو أنها مسلمة من مسلمات عند معظم العلماء و المفكرين بمختلف مشاربهم العلمية و الفلسفية المعرفية".8

" فإخضاع الأفراد لقوى التجانس و التوحيد ثقافيا يبطن إعتداء على ذاتية الفرد وهويته، التي اكتسبها عبر تاريخ نموه في نمط ثقافي معين، وتعمل بوصفها تجربة ذاتية عميقة كأداة للمقاومة و التحرر من الإزدواجية القسرية، ويتجلى ذلك

---

[4] 20h25،15/09/2014، http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%B9

[5] Gille Ferreol ;Jean –pierre Norek :**Introduction a la sociologie** p 130 ،2000،paris،Armand collin .

[6] تريش عز الدين،**القصيدة الشعبية و دورها في ترسيخ الموروث الثقافي**، مجلة النقد الثقافي:التراث والحداثة،العدد 01، ديسمبر2013،ص 155.

[7] عبد المجيد عطار،**موقع المسألة الثقافية في البناء الحضاري عند مالك بن نبي**،رسالة ماجيستار،الأنثروبولوجيا،جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان،الجزائر،1998–1999،ص 122.

[8] عبد الكريم غريب وآخرون،**التواصل والتثاقف**،عالم التربية،الطبعة الأولى،المغرب،2010،ص82.

فيما يبديه الفرد من قدرة على ممارسة التحايل وإبراز الفردية والخصوصية الذاتية حين التواصل مع الجماعة، ناهيك عن لحظة تواصله في السياق العولمي،...و ظهر لدى غاندي في بعثه لخطورة فكرة المدنية ملوثة بالقوة في التعليم الأساسي، وما فتئ هذا المعنى المعولم للتربية والتثاقف حتى اصطدم بما اعتبره شونفلونج بالعدة الوراثية التي نتجاهلها في إجراءات المواكبة العالمية، حيث يعتقد أن الإدراك الحسي للأفراد و تشكل المدركات البيئية، تتطور مع التفاعل بالمحيط البيئي و الاجتماعي مما يكسبها خصوصية أو ما يمكن أن نسميه بالهوية الجغرافية التي لا يمكن تجاهلها، ولا تسمح بالاستجابة دائما خارج موطنها الأصلي"[9]

- **مفهوم habiter:**

يعبر عن جميع مفاهيم الوعي عند الأفراد ويهتم بتاريخ المكان بإنسانيته و عاطفته، وهو من وجهة نظر أبرامز هو خلق بيئة متكاملة في عملية التحضر و التنمية على حد قوله"إن الإسكان ليس مجرد المأوى ولكنه جزء من نسيج الحياة الاجتماعية في المجاورة و في المجتمع ككل،و في نفس الوقت يلمس أوجه كثيرة من التنمية و الأنشطة الاقتصادية"، ويلعب الإسكان دورا كبيرا في النمو الاقتصادي والحضاري للمجتمع لكون المساكن أماكن للإقامة و قد تكون في نفس الوقت أماكن للإنتاج (محل، ورشة، عيادة) كما يساهم في توفير فرص العمل، في تنمية المدخرات والاستثمارات، في زيادة إنتاج المجتمع بتوفير الراحة والاستقرار اللازمين للتقدم، وتوصل فريق آخر من الباحثين إلى أن الإسكان هو "المجال المنظم و المسكون بالمجتمعات الإنسانية لتنمية إنتاجهم المادي والثقافي والذي بني في حدود الإمكان وهو ذو إقامة ممتعة له ثلاث وظائف: الإنتاجية ومجال العمل ومجال الحياة..." ووفق هذا التحليل درست دوكسياديس صورة استقرار الفرد من خلال 03 مؤشرات:

- من خلال الإطار المعيشي و الثقافي و من خلال شخصية الفرد و العائلة والمجتمع
- من خلال التهيئة للتمتع بالحياة الخاصة
- من خلال العلاقات و مشاركة السكان في اتخاذ القرار

والفرد يتطلع إلى وجود اجتماعي بالإضافة إلى رغبته في معايشة مجتمعه بديناميكيته، بأفكاره بقيمه بتعبيره ويكون هذا بانخراطه في المنظمات الجماهيرية والاتحادات الوطنية والأحزاب ويندمج في أنماط تفكير المجتمع الفيزيقي لأن المسكن قالب مادي للتفاعل الإنساني، ويتوقف هذا التفاعل على تشكيلات هذا الإطار بما يتضمنه من مبان و فضاء و مرافق، وخدمات وشوارع وحدائق و ساحات وأماكن للتسلية، و أسواق، ما يتيحه من علاقات إجتماعية، وما يحتوي من نماذج بشرية ذات خلفيات ثقافية متعددة – فبقدر ما يؤثر الإطار المادي على سلوك و تصرفات الشخصيات الذين يشغلونه يؤثر الأفراد و الجماعات بدورهم على محيطهما السكني فيشكلونه، و يخضعونه لرغباتهم و متطلباتهم، ففي داخل البيئة السكنية ينشأ الأطفال و تترعرع الصداقات وتنمو العلاقات وتزدهر وتثور الخلافات والصراعات والضغائن، وينمو الشعور بالإنتماء والإندماج و تنمو كافة الأعراض المرضية من القلق و الإنطواء إلى الإنحراف والعداوة والإجرام .[10]

[9] إينيت شونفلونج،**العولمة تحد للتعلم الإنساني**، تر:محمد سعيد الصبريني،الثقافة العالمية،ع 85،1997،المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب،الكويت ص 126.
[10] ديلمي عبد الحميد، **دراسة في العمران والإسكان**،مخبر الإنسان والمدينة،دار الهدى،الجزائر،2007،ص ص 40-44.

ثالثا :تطورات الوضعية الاجتماعية من خلال :

- مكانة الفئة المسنة اجتماعيا:

تخضع الأسرة الجزائرية في المجتمع المعاصر لتأثيرات اجتماعية و اقتصادية و ثقافية خارجية وداخلية مما ترتب عنها تغيّر ملامح البناء الأسري ونسق السلطة فيها الذي أضعفه تحول وتفكك الأسر من الممتدة الى النووية صغيرة الحجم، مما أدى إلى تهلهل العلاقات الأسرية الداخلية، بالتالي تغيرت أدوار الأفراد ومكانتهم الاجتماعية داخل الأسرة الواحدة لاسيّما أفرادها المتجاورين.

كما لا ننسى فقد كانت الفئة المسنة تحتل في المجتمعات البدائية القديمة منها، مكانة مرموقة و المتأتية من قيمة ذاكرتهم و خبرتهم في الحياة، "ففي المجتمعات الصينية باعتبارها أقدم الحضارات التي عرفتها البشرية كانت سلطة الأب فيها لا تضمحل مع تقدمه في السن بل تزداد، حتى المرأة التي كانت مقهورة تسترجع مكانتها مع تقدمها في السن".11

ومكانة المسن في تلك المجتمعات القديمة مرتبطة بالوضع الثقافي الذي تتحكم فيه المعتقدات و الديانات ، إضافة إلى الوضع الاجتماعي و الاقتصادي الذي من قساوته من النادر أن يصل عمر الفرد فيها سن الخمسة والستين.

كما اهتم الإسلام بالوالدين وجعل لهما منزلة عالية ، فعلى الابن أن يحمل لهما الاحترام و التقدير وعليهما أن يكونا متسامحين فمن قوله تعالى ":ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن و فصاله في عامين أن اشكر لي و لوالديك إلي المصير12"

كما اعتبر المسنون في مجتمعات ما قبل النهضة الصناعية مرجعا للأجيال الجديدة و مكتبتهم المعرفية لذا فكلما كبر الشيخ كلما ارتقت مكانته ، و السلطة في تلك المجتمعات تُعطى مطلقة للمسن أين يصبح الشفيع لأفراد الجماعة التي يعيش بينها و أوامره و نصائحه يقتدي بها الآخرون.

لكن مع دخول مجتمعاتنا عصر النهضة، تغيّرت الأوضاع نتيجة التقدم المتواصل في المجال التكنولوجي الذي فرض على الأسرة و بالتالي المدينة ككل مصيرا لا مفر منه و هو الانحلال التدريجي لنمطها التقليدي المتحوّل إلى نووي في خضّم المجتمع الحضري الصناعي المعّقد و المتسبب في تفكك و تصدّع بناء مجتمعاتنا أين أصبح الأفراد يهمشون و يعزلون اجتماعيا بل أصبحوا يعتبرون في مجتمعنا المسمّى بالحديث مشكلة اجتماعية ، مما أثر على نفسيتهم و اندماجهم الاجتماعي و انحسار علاقاتهم الاجتماعية لتفكك الروابط بين الأجيال المتعاقبة (أجداد، آباء، أبناء، أحفاد) الذي أضعف مبدأ الالتزام المتبادل فيما بينهم و استمرار الامتداد الأسري القرابي مع ضعف السلطة السائدة فيها ، الذي قد ينجم فيه الشعور بالنقص ، وانه شخص غير مرغوب فيه وهذا الإحساس الناتج عن فقدانه لمكانته الاجتماعية بتقاعده و إحالته إلى التقاعد بمعاش زهيد و عدم قدرته على تحمل مسؤولية البيت فيحس بنقص النشاط الذي كان عليه من قبل ، إضافة إلى انفصال الأبناء واستقلالهم عنه الأمر الذي يحد من شبكة علاقاته الاجتماعية مما يؤدي بالبعض إلى الانعزال و الانطواء على أنفسهم ، ويعيشون فكريا في الماضي وفي منجزات الماضي، بدل أن يعيشوا حاضرهم و التمتع بثمرات ما ربوا و كبروا وسهروا عليه عند هرمهم.

لقد غيّر الشكل الجديد للمدينة الصحراوية العائلة الجزائرية إلى حد كبير من خصائصها التقليدية و يتبلور هذا خاصة في المناطق الحضرية الأمر الذي حرّر بدرجة كبيرة سلوكات وتصرفات الأبناء حتى تكوّن فيهم عنصر اللامبالاة، وحب الاستقلالية ومن أسباب هذا التحول الجذري ضعف وغياب سلطة الآباء إلى جانب اضمحلال و تلاشي

[11] –(S)-De Beauvoir ، **La vieillesse** ، Ed: Gallimard ،Paris ،1970، P:99 .

[12] سورة لقمان ، الآية 14.

علاقات القرابة والجيرة و روابطها التي ذابت مع ذوبان نمط الأسرة الموسعة إضافة إلى تفكك هويتهم وانسياقهم للغرب في ألفاظهم و تعاملاتهم.

ففي مجتمعاتنا التقليدية خاصة الريفية منها التي كانت تعطي أهمية بالغة للتلاحم و الاندماج الاجتماعي بين أفراد الجماعة من خلال الإسهام الجماعي الايجابي لكافة أفراد المجتمع في التفاعل الاجتماعي بما فيهم الشباب.

ففي هذه المجتمعات إضافة إلى الاحترام و التبجيل الذي كان يتمتع بهما الأفراد ، فقد تولت في هذه المجتمعات البسيطة و التقليدية "الأنشطة التي تختص بالمهام الدينية والشعائرية و تولي الأحكام و الفصل في الخصومات في حال غياب السلطات الإدارية، مثلما هو سار في مجتمعاتنا الريفية عن طريق ما يعرف بـــ *الجماعة *التي يلتقي فيها كبار القبيلة أو القرية ومسنيها لمعالجة القضايا الخاصة بقريتهم و مشاكلها أين تعتبر هذه المؤسسة في بعض الأحيان وسيلة من وسائل فرض العقوبات على أفرادها الخارجين على عرفها وعاداتها و تقاليدها.

فمن المهم أن يشعر الفرد أنه ما زال يلعب دوره المطلوب منه في الحياة الاجتماعية و بأن المجتمع و عائلته لا زالوا محتاجين إلي خدماته ليحدث التوافق النفسي ومنه التكيّف الاجتماعي فالدور مرتبط بمشاركة استجابات الآخرين 13"

رابعا : التعايش الجيلي بين الصراع والتكامل:

من أهم المظاهر التي أفرزتها التحولات الاجتماعية للمجتمع الجزائري والتي مست نسقه القيمي الذي أكسبه خصائص جديدة سواء المتأتية من المخلفات الاستعمارية القديمة أو عن طريق التقدم والحداثة التي ساعدت في عمليات التثاقف الذي له طابع أحادي الجانب أكثر منه تثاقف متبادل ، وهذا انطلاقا من الدور الذي يلعبه مجتمعنا العربي عامة والجزائري خاصة الذي يمكن تلخيصه في دور المستهلك المتأثر لكل ما هو أجنبي بإيجابياته وسلبياته والذي أكسب التغير القيمي وتيرة متسارعة مما قد يكون سببا فيما يسمى بصراع الأجيال الذي قد يكون منشأه انتشار نزعة الأنانية والفردانية واللامبالاة وحب الملكية والجري وراء الكسب السريع ، هذا من جهة ومن الجهة الثانية الانتشار المستمر لتيارات فكرية وأخرى سياسية واقتصادية والذي تلعب فيه وسائل الإعلام دورا رئيسيا في إكساب الأجيال الجديدة لأفكار أكثر استقلالية وتحررية تماشيا والتغير الاجتماعي العام التي قد تُناقض بعضها أفكار وأراء الأجيال السابقة.

وهذا التغير الذي قد يكون منبعه التأثيرات الخارجية من جهة ومن جهة ثانية ميل الفرد للاستقلالية والتحرر من السلطة الموجودة حتى وإن كانت تحت ضغط اجتماعي (لاحترام القيم التقليدية) والمدعمة بطموحات الفرد وأماله في تحقيق ذاته بذاته الذي قد يراه يتحقق باستقلاليته في بيت مستقل عن العائلة الأم مما ساعد في انتشار الشكل الجديد للأسرة الجزائرية و بالتالي المدينة تغيرت في أنماطها المتبعة ،أو باستقلاليته الاقتصادية باعتماده على جهوده الذاتية لتحقيق نجاحه الاجتماعي مما أكسب الأبناء مكانة جديدة في وسط العائلة بعد أن أصبحت الشهادات تضمن القدرة وتُحرك المسؤوليات وهذه المكانة الجديدة تتجلى واضحة في "انتقال جزء من سلطة الأب إلى الابن الذي نجح في دراسته وفي حياته المهنية ، كما أن هالة الاحترام التي كان يتمتع بها الأب بصفته الكفيل لضمان القيم الموروثة من الأجداد ، فقد أصبح الابن يتمتع بجزء منها بفعل وظيفته المهنية التي اكتسبها والتي تعتبر بصفة غير مباشرة نجاحا للعائلة نفسها ونجاحا للأب بالدرجة الأولى".

فالعائلة عامة والأب خاصة يعتزون ويفتخرون بالنجاح الاجتماعي الذي وصل إليه الأبناء دارسا كان أو مهني ، وهذا ما يعطي للفرد مكانة جديدة ودور جديد في الأسرة " فأن الشخص الذي ارتقى إلى تلك الوضعية الاجتماعية – المهنية ، فانه على العموم لا ينكر أهله بل كثيرا ما يحترمهم حتى يشعر أنه موكل ومقدر ، بل مشجع من طرفهم ليسير

[13] محمود السيد أبو ليل ، **علم النفس الاجتماعي :دراسات عربية وعالمية** ،دار النهضة العربية،بيروت ،الجزء الثاني 1984 ،ص308 .

في الطريق الجديد ألا وهي طريق التقدم الاجتماعي الاقتصادي والاجتماعي الثقافي وفي الانسجام مع القيم القديمة ."14

ولكن الحقيقة الأخرى التي أثبتتها دراسة السيد عبد العاطي السيد في " صراع الأجيال " أنه هناك تغير في تمسك الآباء والأبناء بقيم الطاعة المطلقة التي تختلف حسب المنطقة والدخل فكلما اتجهنا من الوسط الريفي إلى الحضري كلما كان الآباء أكثر تسامحا مع الأبناء ، وبالمقابل كلما كان للأبناء استقلالية اقتصادية ودخل مرتفع في وسط حضري كلما كانت عينة الشباب أكثر رفضا لقيم الطاعة الوالدية.

وبهذا أصبح إطار ومجال الاحترام اللاعقلاني للجيل القديم من الجد والأب ضيقا دون إحداث صراع بين القديم والجديد ، لأن احترام القيم التقليدية كما يسميها الدكتور " مصطفى بوتفنوشت " لازال قائما في الأجيال الجديدة حتى وإن أحدثت التطورات والتأثيرات الثقافية الخارجية تغييرات على مستواها فالجديد يحترم ويكمل القديم ، وأحسن ما يبرز هذا التكامل هي المعادلة التي يعتبرها علماء الاقتصاد العامل المغذي لصراع الأجيال والكاملة في معادلة عامل / متقاعد ، إلا أنها حقيقة " تخلق تضامنا أو رباط اجتماعي بين الأجيال "15. وتسمح للفرد في الحفاظ على مكانته ودوره الاجتماعيين داخل أسرته عن طريق المساهمة والمشاركة الاقتصادية " فبعد تجريد الأب من وظائفه السابقة فإنه يبقى مركز التوافق العائلي باعتنائه ومساهمته لكل أفراد العائلة بما في ذلك الذين يعملون ويمتلكون موارد وبالتالي يتفادى التهميش الداخلي ضمن أسرته.

وبهذا ومن خلال كل ما سبق ذكره نستخلص أن الأسرة باعتبارها من أهم المؤسسات الاجتماعية قد تأثرت بصفة عامة بالتغيرات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى عمليات التمدن والتحضر كنتيجة للهجرة الداخلية بحثا عن فرص العمل التي انعكست على الأسرة الجزائرية في هيكلتها وبناءها ووظائفها وأدوارها ومراكز أفرادها فيها.

إن ظاهرتي الحداثة والتمدن قد أنتجتا انقساما وتشتتا للعائلة الممتدة ، باتجاه المجتمع الجزائري أكثر فأكثر إلى نووية الأسر، خاصة في المدن أين يسيطر فيها الطابع الفرداني على كل وظائفها وعملياتها التي ترك جزء منها لبعض المؤسسات الأخرى المنافسة لها كالمدرسة ووسائل الإعلام كما نجد في هذا النوع من الأسر انتشار روح التمرد على الأسرة وضعف صلات القرابة بأفراد العائلة الآخرين كالأعمام والأخوال وغيرهم زيادة إلى خروج المرأة للعمل الذي أسقط صورتها التقليدية وأصبحت تساهم ماديا في تكاليف معيشة الأسرة و قراراتها

خامسا:مكانة ودور المدينة الصحراوية ضمن صياغ التحولات الاجتماعية في الجزائر :

"إن تحليل توزيع العناصر الأساسية (الملكية، التعليم، والسلطة) في التشكيل الاجتماعي يمر حتما من خلال دراسة

الحقول الأساسية التي تشكل البنية الاجتماعية:

أولا : الحقل الاقتصادي الذي يتضمن الإنتاج وتوزيع الثروة.

ثانيا : الحقل الاجتماعي الذي يتضمن توزيع الروابط الاجتماعية وعلاقات السلطة

ثالثا : الحقل الديني والرمزي أين تنتج من خلاله الشرعية الاجتماعية.

إن داخل كل حقل من هذه الحقول المترابطة ومن خلال الممارسة والحياة اليومية تنتج تدرجات تدفعها مجموعة من الرهانات، ولعل أهم رهان هو الرهان المجالي الذي يرمز إلى الترقي والنجاح الاجتماعي"16

---

[14] مصطفى بوتفنوشت ، **العائلة الجزائرية –التطور والخصائص الحديثة** –، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1984 .ص235.

[15] (C)- Jasmin et (R)- Butler ، **Longévité et qualité de vie : défis et enjeux** ، La Flèche ، France ، Mars 1999 ، P: 179.

[16] خليفة عبد القادر:**الحضرية في المدن الصحراوية**،مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية،العدد08،جامعة قاصدي مرباح ورقلة،الجزائر،جوان 2012،ص 08–09.

التحولات في المجال الاقتصادي:

خرجت الجزائر بعد الاستقلال كمجتمع منهك من عدة نواحي نتيجة التركة الاستعمارية التي ورثتها من عند فرنسا بسلب الأراضي الزراعية، سياسة الأرض المحروقة، سياسة التجهيل والحرمان الثقافي من منابع العلم والمعرفة ...فتركت بذلك مجتمعا منهك بالحرب وقاعدة اقتصادية مدمرة وشبه منهكة 17 تمتاز بتبعية خالصة للإنتاج الكولوني وتوجهاته، يكاد يحقق اكتفاء في المجال الفلاحي و أغلبها كانت موجهة للصناعة مثل الخمور والعصير وغيرها، وصناعة خفيفة أغلقت أغلب مصانعها بعد هجرة المعمرين الذين كان يمتلكونها بعد استقلال الجزائر ، وصناعة ثقيلة من أمثال مناجم الحديد والبترول والغاز أممت حتى سنوات السبعينات.18

مسار التحول في المجال الاقتصادي في الجزائر غداة الاستقلال، كان مبني بشكل كبير على استراتيجيات التنمية الشاملة، عن طريق إرساء قاعدة صناعية ثقيلة، و عن طريق صناعة النفط والحديد والصلب هذه التحولات الاقتصادية التي شهدها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال في إطار شعار الجزائر الحديثة الموجهة أكثر إلى الصناعة والخدمات والإدارة، و بتحديث القطاع الزراعي الذي كان يستقطب أغلبية الجزائريين، عجل بانتقال المجتمع الجزائري من الاقتصاد التقليدي إلى الاقتصاد الحديث19 .

وقد تناولت كلودين شولي في كتابها" الأرض، الأخوة والمال "كيف تم تحديث الريف في الجزائر عن طريق الثورة الزراعية أو القرى الاشتراكية التي أدخلت التحسينات الحديثة إلى الريف و عجلت استقلال الأفراد عن التعاونيات الفلاحية و جلب اليد العاملة الأجيرة مقابل اليد العاملة العائلية، وكيف أثر ذلك على الأسر الريفية و تحطيم ذلك النوع من توزيع العمل السائد في ذلك الأسلوب من الإنتاج.20

أتى التحديث في الجزائر في خضم هذه التحولات الاقتصادية، خاصة عند الانتقال من مرحلة الاقتصاد الكولوني والاستعماري إلى اقتصاد الدولة والاقتصاد الموجه الاشتراكي وهي السياسة المنتهجة في السبعينات من القرن الماضي، خاصة في عهد مرحلة الرئيس الراحل هواري بومدين، الذي كان يحمل مشروع تحديث المجتمع الجزائري وتحديث الأرياف والتوجه إلى الصناعات الثقيلة التي كانت الشغل الشاغل للسلطة الجزائرية آنذاك.21

أن ذلك التحول أثر بشكل كبير على الأسرة وعلى الحياة الاجتماعية للأفراد، من خلال انتقال أدوارهم الاجتماعية ومكانتهم الاجتماعية بفعل التحول من الاقتصاد التقليدي إلى الاقتصاد الحديث، وشبه تحطيم للنظام التقليدي السائد آنذاك ،وكان الاقتصاد التقليدي مبني على الجماعة الأسرية أو الأسرة الاقتصادية الكبيرة، أين كان يمثل فيها رب للأسرة في كل شيء، فبيده كل شيء الأمر والنهي وتزويج أحد الأبناء والبيع والشراء والاستثمار والادخار وغير ذلك ...لأنه مالك الأرض ومالك وسائل الإنتاج، لهذا فالجماعة تنطوي تحت تصرفه، ويقسم الأدوار والعمل بين الجميع كما يشاء، و يرث من بعده الأخ الأكبر ذلك الدور أو يساعده فيه في بعض الأحيان، فكان هذا النظام يعطي مقدار المكانة بالأقدمية في العمر، وللمسن خاصة المسؤولية الأولى والمكانة الأولى داخل الأسرة وخارجها.22

صاحبت هذه الديناميكية الاجتماعية في إطار التحديث، تحول المجتمع الجزائري من الريفي إلى الحضري أو "المدني "وتحولت معه الكثير من القيم الاجتماعية والمبادئ التقليدية، وأكبر تحول كان إبان حرب التحرير التي حركت

---

[17] Mostapha BOUTEFNOUCHET، **La société Algérienne en transition**، OPU، Algérie، 2004 p 159

[18] عبد الناصر جابي ، **الحركات الاجتماعية في الجزائر ، بين أزمة الدولة الوطنية وشروخ المجتمع** ، CREAD ، ص14 .

[19] Mostefa HADDAB، **Transformations dans le monde du travail en Algérie، et évolution du système d'éducation et de formation**، ed/SOM ، Paris، juillet 1986، p

[20] Claudine CHAULET، **La terre، les frères et l'argent، stratégie familiale et production agricole en Algérie depuis 1962**، tome 3، OPU، Algérie، 1984.

[21] Mostefa LACHERAF، **Ecrits didactique sur la culture، l histoire et la société**، ENAP، Algérie 1988.

[22] Claudine CHAULET، op cit T1، p 204.

الكثير من الأسر إلى التجمعات السكانية، وتخلي هذه الأسر عن واقعها الفلاحي وحياتها ونظامها الأسري و دخولها في نظام اجتماعي آخر مغاير.

فبعد الاستقلال الكثير من العائلات اتجهت لاستغلال المدن وتحولت من عائلات قروية إلى عائلات مدنية، تقطن في شقق وفي عمارة ذات طوابق، أفرادها يعملون في شركات وطنية ومؤسسات صناعية، الكثير من هذه العائلات مستها بعض التحولات وحافظت على البعض، فالكثير منها حافظ بشكل أو بآخر على النمط الممتد أو على الروابط الأسرية الممتدة ، كشغور شقق صغيرة بعائلات ممتدة، خاصة خلال أزمة السكن إبان الثمانينات، أو استمرارا السلوك و العلاقات أو أساليب الانتاج و الاستهلاك في وسطها الجديد.

هذا التحول الذي مس الأسرة من تداخل بين مرحلتين انتقاليتين أظهرت عدة إفرازات وعدة وضعيات، في الأسر الجديدة فتجد الأفراد مستقلين بذاتهم وبدخلهم وبإنتاجهم كل حسب ما يكتسب من وسائل وكفاءة، والأب يحاول أن يتأقلم مع هذا التحول بفقدان الكثير من أدواره و سلطته، الأم أيضا تبحث عن وسائل للتأثير بشكل أفضل، زوجة الإبن تحاول أن تجد وسطا لنفسها وان تمارس حريتها واستقلالها الخاص، وغيرها من الأشكال التي أثرت بشكل أو بآخر على وضعية الكبار في السن داخل هذه البنية .23

التنظيم السياسي:

بنفس النهج والنظام الذي تم به التحول في النظام الاقتصادي، تم هنالك حراك في التحول السياسي والتنظيم الإداري، من التنظيم القبلي التقليدي الذي كان سائدا في الوقت الماضي، والذي ربما لا يزال محافظا عليه في بعض المجتمعات المحلية المحافظة كشكل من أشكال التنظيم إلى تنظيم بيروقراطي حديث.

بعد الاستقلال انتهجت الدولة الجزائرية عدة أنظمة إدارية وسياسية سنتها على المجتمع الجزائري، ففقد ذلك النظام التقليدي عدة صلاحيات له لصالح الدولة، والسلطة المحلية(البلدية أو الولاية)، وبإدارة السياسية الحزبية والنخبة، التي سعت لتكريس مفهوم الدولة الوطن و ربط الفرد بالوطن أكثر من ربطه بالعشيرة والقبيلة 24، و لتكريس هذا النظام "الدولة الوطن "أنشأ إلى جانبه، نظام قانوني مدني عوض مكان النظام العرفي الذي كان يستند إلى الجماعة أو مجلس شيوخ القرية، أستبدل مكانه تشريعات قانونية لقيد الممارسات والحقوق ورفع المظالم وفظ النزاعات والخصومات، التي كان يؤديها النظام التقليدي بشكل عرفي من خلال حكم الجماعة والمتعارف عليه.

وما يسمي بالشيخ الذي توارثت الأجيال تسميته حتى يومنا هذا، فبالنسبة لمهنة الأستاذ وإن كان في مقتبل العمر أو في العشرينيات فهو شيخ نسبة لمهنته، هذا التنظيم القديم أعطى وقدم الشيوخ في أعلى مناصب المجتمع ، و أعطى لهم سلطة القرار و وظيفة التعليم والتوجيه والتربية و الإدارة و التسيير.25

التحولات الثقافية:

من أهم ما شهدت الجزائر بعد الاستقلال إلى جانب التحولات الأخرى هي انتشار التعليم بشكل واسع بين أفراد المجتمع الجزائري وفي كل الشرائح الاجتماعية والطبقات الاجتماعية الفقيرة والغنية، وفي مختلف المناطق الحضرية والريفية من الشمال إلى أقصى الجنوب، من خلال سياسة تعميم التعليم ومجانيته ثم إلى اجباريته، هذا ما عجل على انتشاره بكثافة بين أفراد المجتمع، و في مختلف الشرائح ذكور وإناث، كبار وصغار، وقد قطعت الجزائر أشواطا كبيرة للقضاء على الأمية والجهل خاصة بعد الاستقلال.

---

[23] Lahouari ADDI، **Les mutation de la société algérienne، famille et lien social dans l`Algérie contemporaine**، La Découverte، Paris 1999، p 38

[24] Jean LECA & Jean Claude VATIN، **Le système politique Algérien، idéologie، institutions et changement social**، CRESM، Paris ، 1978.

[25] Mostapha BOUTEFNOCHET، **La famille algérienne، évolution et caractéristique récent**، op cit ، p 255.

هذا الموجة من التعليم والتعلم وفي مستويات عليا فرضت نظام قيمي جديد للمجتمع إلى جانب اهتمام الصناعة والاقتصاد بذلك فأصبح التعليم يعتبر من أبرز المحددات القيمية للمكانة الاجتماعية في المجتمع الحديث.

كذلك من التغيرات الثقافية تغير وضع المرأة بفضل الانتشار الواسع لتعليم الإناث حتى مستويات عليا، واقتحامها أيضا مجال العمل، جعلت المرأة الجزائرية تفتح آفاقها وطموحاتها وتحقق إنجازات كبيرة في هذا المجال حيث دخلت كل المجالات الاقتصادية المختلفة الصناعات الخفيفة و الثقيلة، قطاع الخدمات، الإدارات و المؤسسات والشركات الكبرى حتى إلى أجهزة السلطة التشريعية منها والتنفيذية، فأصبحت تحمل حقائب وزارية ودبلوماسية و عضوة في البرلمان والمجالس الشعبية الوطنية و الولائية وغيرها من الوظائف العليا، هذا التحرر من قبل المرأة وتعلمها ومشاركتها الاقتصادية والمدنية أدى إلى عدة ترتبات وتغيرات اجتماعية، من أهمها التغيرات التي شهدتها الأسرة و الخصوبة، من تقلص في حجم الأولى والتراجع الحاد للثانية الخصوبة، بتأخر سن الزواج و العنوسة الاختيارية وغير ذلك من المظاهر الجديدة للمجتمع الحديث .26

هذا إلى جانب أن خروج المرأة وانخراطها في الحياة الاقتصادية خارج المنزل، جعلتها تتحرر من عدة وظائف داخل الأسرة التي كانت في السابق وسطها الوحيد ووظيفتها الوحيدة، فاستقلت بذلك عن رعاية أطفالها المتواجدين داخل هذه الأسر، فهي تمشي وتقلص من حجم أسرتها ومن حجم مسؤوليتها في الأسرة ، وهي تعود في الغالب من العمل مرهقة ومتعبة لا تستطيع التفرغ لخدمة غيرها من غير حيزها الأسري الضيق زوجها وأولادها فبذلك يتقلص حجم رعايتها داخل هذه الأسرة .

سادسا : خصائص تطور المدن الصحراوية الجزائرية وأثرها على الهوية والإنتماء لدى الفرد:

يشير المختصين إلى أن تطور المدينة الجزائرية وكمثال نأخذ مدينة ورقلة "التي تقع في الجنوب الشرقي للجزائر و بسبب هذا الموقع الجغرافي استطاعت التكيف مع مختلف الوظائف و المراحل التي عرفتها المدينة منذ قيامها كنقطة إلتقاء للقوافل التجارية في الصحراء إلى غاية الوقت الحاضر"27، والذي أتى ضمن التنمية العامة التي يحاول المجتمع تحقيقها في مختلف النواحي، الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية ، والعائلة الجزائرية لم تكن معنية بسرعة التحول المسجل في المجال الاقتصادي والسياسي خاصة التصنيع، فهي أتت في سياق بطيء وكانت كمتغير تابع لها.

" والصحراء الجزائرية اليوم هي حضرية بالدرجة الأولى، إذا لم تعد الواحة كما كانت عليه منذ ماض قريب! حقيقتها العمرانية و الإجتماعية تؤدي بنا إلى الوقوف على ساحة من التحولات الإجتماعية العميقة و المتسارعة، الواقع الإحصائي يثبت أن 80% من سكان الصحراء باتوا«حضريين»، هذا الواقع لم يتكرس إلا في العشريات الأخيرة، من خلال ما عرفته مدن الجنوب الجزائري من ديناميكية عمرانية تفوقت حتى على مدن الشمال،و تحولات إجتماعية ونمو ديمغرافي لم تشهدها هذه المناطق طيلة ألاف من السنين من وجودها،و هذا بفضل عوامل «التحديث» بعد استرجاع السيادة الوطنية، و أيضا نتيجة التحولات و التغيرات المجالية– الإجتماعية العميقة التي مست أساس البنيات الإجتماعية لمجتمعات الصحراء التي بدأت منذ الفترة الإستعمارية و المستمرة إلى اليوم"28

ونجد خليفة عبد القادر يوضح لنا بأن القصور الصحراوية بنيت في الأساس على توافق بين ثلاثة عناصر رئيسة هي:

- الطين (الأرض).
- الماء(المياه الجوفية عموما).

---

[26] Fatima ZIANI DRID ، **La famille algérienne entre tradition et modernité**، projet d'recherche، l université de Batna، 2009، p 02.

[27] مدور يحي،**التعمير و آليات استهلاك العقار الحضري في المدينة الجزائرية – حالة مدينة ورقلة**– رسالة ماجيستار تخصص الهندسة المعمارية والعمران،جامعة الحاج لخضر– باتنة،الجزائر،2012/2011،ص 76.

[28] خليفة عبد القادر،**من القصر الصحراوي إلى المدينة الحديثة**،مجلة العلوم الإنسانية و الإجتماعية، العدد 01،جامعة قاصدي مرباح ورقلة،الجزائر،2010،ص 127.

- المقدس(الضريح ،الولي الصالح أو الزاوية)

ونجد أن الطموح إلى العصرنة والتمدن لم يقضي تماما على استمرار العلاقات الاجتماعية التقليدية في المدينة وفي المجتمع الحديث، على العكس هنالك عدة عادات وتقاليد اجتماعية لا يزال المجتمع الجزائري محافظ عليها كعلاقات الجيرة ، التعاون ، الزواج، ومنها احترام الوالدين والكبار في السن.

ومن بين المفاتيح التي تعمل على الإندماج في المجتمع الوطني العام للصحراء التنظيم والتقطيع الإداري وكذا التجهيز الإقتصادي كما يدرج عبد القادر خليفة حيث و بعد إقامة الدولة الوطنية بعد الإستقلال ، ومع استغلال آبار البترول بداية من سنة 1956 ،و تأميمها سنة 1971 تغيرت بطبيعة الحال الأوضاع حيث زادت الثروة الإقتصادية الوطنية والمحلية وهو ما سمح بنمو شرائح إجتماعية جديدة جهوية و ووطنية أيضا، "وتلتقي هذه التحولات الخارجية مع ديناميكية داخلية للمجتمع في المنطقة المتعددة الأصول و الإنتماءات وأشكال التنظيمات الإجتماعية، و ارتكزت هذه الديناميكية على منابع و مصادر ثقافية للمجتمع الصحراوي بالرغم من نزعة التوحيد المرتبط أساسا بالمنطق الإقتصادي و توحيد طرق و أنماط الحياة و أشكال السكن، و يبقى سكان المنطقة مطبوعين بخصوصياتهم التاريخية و هياكلهم الإجتماعية، بتأقلم مع مقتضيات الإقتصاد الجديد و الأشكال التقليدية للإقتصاد الصحراوي، برزت أشكال من التأقلم الذكي بين منطقها الهوياتي و منطق«الدولة» المتميز بالعصرانية أو «التحديث»"[29]

ومع بداية الثمانينات، بدأ يبرز تيار يطبع عمله توجه نحو العودة إلى الذات و البحث في مكونات التراث بوصفه " تتابع التجربة و القيم الحضارية و الإجتماعية و الدينية بين الأجيال، و التي تولدت منها معاني و قيم و هوية عمرانية ارتبط بها الإنسان" [30]وقد تم هذا التحول أيضا "على مستوى المجال، وصل حده الأعلى إلى إلتهام تجمعات حضرية كانت في الزمن القريب متجاورة (قصور النزلة، الزاوية العابدية، تبسبست) لتصبح مدينة واحدة متلاصقة تؤلف نسيجا عمرانيا واحدا مدينة متعددة المجموعات و الشرائح و «الهويات» التقليدية... و في أغلب الأحيان تأخذ المورفولوجية المجالية للمدينة الصحراوية شكل انضمام لعدة أنسجة تتماثل مع أربعة فترات تاريخية للعمران،القصر أو المدينة التقليدية التاريخية و التي تؤلف نواة المدينة، المدينة أو الإضافات الكولونيالية حول المدينة القديمة أو على جانبها، الأحياء العشوائية التي ميزت الفترة الأولى للإستقلال أو التي ضمت تثبيت البدو الرحل، أحياء التعمير المبرمج في إطار البرامج السكنية المختلفة من سكن فردي ذاتي و سكن جماعي [31]"

والتنمية الحضرية قضية معقدة و متشابكة الجوانب،تختلف معوقاتها في عديد الأبعاد المتداخلة، حيث يؤثر بعضها في بعض و معوقاتها العوامل الديمغرافية كالنمو السكاني الكبير،العوامل الإجتماعية مثل النظم الإجتماعية السائدة كنظام الملكية،النظام السياسي وكذا الصراع ضد التغيير...الخ من المعوقات ، ضف إلى "خصائص يتميز بها المجتمع الحضري الصحراوي منها التفاعل الإجتماعي ،نظام الأسرة المتميز بسيطرة وحدانية الزوج و الزوجة،وكذا تزايد نسبة العاملات كما سبق الذكر،النشاط الإقتصادي، البيروقراطية، اللاتجانس أو التغاير الإجتماعي، التسامح الإجتماعي،سيطرة الضبط الرسمي و الثانوي، المظاهر الثقافية، العلاقات الإجتماعية الثانوية"[32]

---

[29] خليفة عبد القادر،**نفس المرجع السابق**،ص134.

[30] النشاطات التي أقيمت في الاتجاه منها الملتقى الدولي حول النسج العمرانية بوهران بين 01-03 ديسمبر 1987.

[31] خليفة عبد القادر،**نفس المرجع**،ص 135.

[32] بولعشب حكيمة،**مشكلات التنمية الحضرية بالمدينة الصحراوية– دراسة ميدانية بمنطقة عين الصحراء بمدينة تقرت**، رسالة ماجيستار في علم الإجتماع تخصص علم الاجتماع الحضري،جامعة قسنطينة ،الجزائر،2007/2006،ص ص 60-70.

سابعا: الهوية و الإنتماء لدى الفرد في المدينة الصحراوية إنطلاقا من الأسرة :

يحمل تطور الأسرة الجزائرية عدة خصائص من أهمها ضعف البنية الاقتصادية المنزلية المبنية على اللانقسامية والأكناتية agnatiqueبسبب تحول قاعدتها المادية والاقتصادية، مثلما أشرنا إليه سابقا أضعف هذه البنية وتحولت إلى بنية أخرى جديدة تتشكل من نفسها وفق قواعد الهيكلة وتحطيم الهيكل وإعادة بناء الهيكل من جديد في بنية سوسيوأسرية جديدة، مثلما يشير إلى ذلك الأستاذ مصطفى بوتفنوشات.33

كذلك تطور الأسرة الجزائرية لم يمنع من استمرار دائرة العلاقات من البنية التقليدية في المجتمع التقليدي الريفي إلى المجتمع المدني ، فلا يزال أفراد المجتمع المتمدن متمسك بدائرة انتمائه، التي تشكل قريته التي أتى منها، أو الدوار أو العرش أو الأصل أو الانتماء الثقافي و الإثنولوجي المنتمي إليه،" ومن أهم المؤشرات التي ساعدت في تغيير التشكيلة الإجتماعية للعائلة الجزائرية نجد:

- ✓ التحضر السريع
- ✓ الراتب الشهري كنمط إقتصادي جديد للثقافة
- ✓ ديمقراطية التعليم كقاعدة جديدة للثقافة
- ✓ خروج المرأة للعمل

و مما لا شك فيه أن التحولات التكنولوجية الكبرى والتجديد في وسائل النقل والإتصال و وسائل الإعلام و العمل الإداري و الصناعي، و الإيمان بالسلطة والعقلانية في الإقتصاد و علاقات الفرد الإنتقائية بالحضر لها انعكاسات على العقليات و تأثر على الفكر الإنساني و على الطبيعة الإجتماعية، مع تعدد الأنظمة التي يرجع إليها الإنسان في صراع بين ما هو قديم و ما هو جديد و بين ما هو أنفع وأصح في التشكيلة الإجتماعية القديمة و أشكال و العلاقات الجديدة الخاصة بالتقاليد و الإحترام بين الكبار و الصغار،الرجال و النساء، الشباب و الشيوخ"34، كما نجد حسن فتحي الذي قد وقف" موقفا سلبيا متميزا من التقنيات الحديثة في طرق البناء و المواد المستعملة كرد فعل طبيعي على تغييب التراث المعماري و العمراني للمدينة العربية الإسلامية في جميع الميادين، فإنه يمكننا تجاوز الصدمة و الإنطلاق في البحث عن إيجاد منهجية للمزاوجة بين التقنيات الحديثة في البناء و الأسس الجمالية للمدينة التراثية العتيقة، و تهدف هذه العملية إلى التجاوب مع الحاجيات الجديدة للمجتمع من جهة و التمسك بالهوية كإطار يهيكل و ينظم كل التدخلات من جهة أخرى"35

إن كل مجتمع له هويته التي تميزه عن سائر المجتمعات، وأن كل فرد يكتسب هويته من المجتمع الذي ينتمي إليه، وليست الهوية أمرا ثانويا في حياة الأفراد والشعوب والأمم، بل هي مسألة وجودية، وضرورة حيوية، تتعلق أساسا في مستوى من مستوياتها بمعاني الغائية و الهدفية في حياة الإنسان، فالفرد الذي لا يشعر بالانتماء، ولا يعتز بهويته، لا يمكن أن يفكر في رسالة اجتماعية، أو ينهض بواجباته الحضارية تجاه المجتمع الذي يفترض أنه ينتمي إليه. والفرد الذي يتخلى عن هويته و يستلب لهوية أخرى لا يبعد أن يجند لضرب مصالح أمته ومجتمعه ودولته، وفضلا عن ذلك فالفرد الذي لا يعرف له هوية، لا يمكن أن يبدع، فإن الإبداع لابد له من انتماء، لابد له من مرجعية حضارية، فوحدها الشجرة التي تضرب جذورها بعمق في الأرض، هي التي تستطيع أن تعانق أفنانها عنان السماء .فمثل هذا الفرد الذي

[33] Mostefa BOUTEFNOCHET، **La famille algérienne، évolution et caractéristique récent**، op cit ، p 24

[34] ديلمي عبد الحميد، **نفس المرجع السابق**، ص ص 71–72.

[35] خلف الله بوجمعة،**المدينة الجزائرية والبحث عن الهوية**، مجلة رسائل المعرفة، العدد 04،جامعة محمد خيضر بسكرة،الجزائر،2003،ص 95.

لا يعرف له هوية أو انتماء، عبر عنه كولن ولسن باللامنتمي ورسم له صورة بيانية بليغة شبهه فيها بشظية خشب تحت الجلد"36

كما لا "يعني البحث عن الهوية في المدينة الجزائرية بصفة عامة،و في نسجها العمرانية العتيقة على وجه التحديد نوعا من التقوقع المفعم بالحنين،بحيث يصبح بعد ذلك عائقا في وجه التجديد والتمدن و المعاصرفي ظل عولمة تجتاح كل الميادين" كما يضيف بأن المختصين اليوم يلاحظون وجود بعض المحاولات هنا وهناك لإستعارة مفردات من التراث العمراني و المعماري مثل القباب و الأقواس و الساحة وسط الداروغيرها، وذلك بغية إعطاء الإنطباع بالإنتماء الحضاري و التمسك بالأصالة وهذا معناه القيام بالمزاوجة بين استخدام مواد البناء الحديثة وبعض القواعد المستجدة في العمارة والتعمير دون التخلي عن العناصر التراثية المعبرة عن هوية المجتمع واصالته" والذي يستجيب للشروط التالية:

- الإهتمام بكل مكونات النسيج العمراني القائم
- التمسك بالأصالة في التصميم و التخطيط
- التأقلم مع المستجدات في هذا الميدان
- معرفة العناصر العمرانية و المعمارية القابلة للتغيير و العناصر الغير قابلة للتغيير"37.

تطور البطريقية patriarcale :

التطورات التي حصلت بفعل تطور المحيط الاجتماعي الاقتصادي الجديد، ففقدت البطريقية أو الأبوية شيء من جزئياتها من الإرغامية إلى نوع من المرونة في الأسرة الجزائرية، فالأب الذي كان عنصر القرار الاقتصادي القانوني أصبح مستشارا مسموعا وأحيانا يلتمسون منه الإشارة وأحيانا أخرى لا.

كذلك اتساع رقعة التحرر حتى إلى العلاقات الاجتماعية والعائلية جعلت الأب يتخلى عن تسلطه في قراراته مثل ما كان في الماضي الآمر والناهي في كل شيء، ولكنه تكيف مع بنية الأسرة الجديدة ونمط علاقاتها، كما تكيفت هذه الأسرة أيضا معه، فبقي لديه التقدير والاحترام في العائلة الجزائرية ولكن لم يبقى بتلك السلطة المركزية في اتخاذ القرارات والآمر والناهي.

تطور الأكناتية Agnatique :

في المقابل العائلة المعاصرة أرجعت التوازن إلى العائلة الجديدة المصاهرة، وخففت من الضغط الممارس من طرف عائلة الأب وهذا راجعا لاستقلالها وبعدها عن مسكن الأب، وهو ما جعل علاقة القرابة من جهة الأم تتطور في العائلة المعاصرة.

علاقات القرابة عرفت هي أيضا نمو من جهة العلاقات بين العائلة و العائلة الأمومية، من خلال تطور وضعية الأم الاجتماعية والمهنية، فهي تقدم في بعض الأحيان الدعم المادي والمعنوي لمكانتها الاجتماعية، وفي المقابل تعرف العلاقة العائلية الأولية نوعا من الديموقراطية في بنيتها، فتطور الأكناتية في العائلة الجزائرية شكلت نوعا من التوازن بين النوعين من علاقات القرابة بين جهة الأرحام وجهة الأحباب(من جهة الأب ومن جهة الأم) .

[36] كولن ولسون، **اللامنتمي**، ترجمة أنيس حسن زكي، دار الآداب، بيروت، ط3، 1982، ص11.

[37] خلف الله بوجمعة ،**نفس المرجع**، ص 99.

تطور اللاإنقسام:

عرف هذا النوع من العائلة اللامنقسمة هو أيضا تطورا وتفكك، واضمحلال نمط العائلة اللامنقسمة اجتماعيا واقتصاديا بظهور العمل المستقل والعمل الأجري، فانفصال العائلة النواة من العائلة المركزية أصبح منتشرا وليس تحت ضغط العدد الكبير الحجم، وإنما هي التطلع إلى حياة خاصة ولكن أكثر استقلالا.

الخاتمة:

إنه في إطار مدينة جديدة في مدن صحراء اليوم ضمن مجال عمراني ذو منطق عمراني غير واضح المرامي، أصبح يتطور ضمن منطق متعدد يطبعه التقاطع بين المنطق الإجتماعي الهوياتي الذي يتخذ من الهيكلة الإجتماعية والأسرية الجديدة التي أعيد تشكيلها وصيغتها تجاوبا مع التحولات في إطار مجتمع وطني غالب دون فقدان الهيكلة الإجتماعية التقليدية والأصيلة المعبرة عن الهوية الإجتماعية، كما أن التحولات المجالية و الإجتماعية التي تشهدها مدن الواحات هي تحولات عميقة غيرت في فترة وجيزة نسبيا نسقا دام قرونا طويلة الممارسات المهنية الجديدة أعادت تصنيف النخب و المجموعات في هذه المنطقة، إنها تعبير واضح عن الهويات الإجتماعية والإقتصادية الجديدة في مدينة في طور الإنجاز لمجتمع في طور إعادة التشكل.

يمكن الإشارة في الأخير أن الفرد لا يزال يحافظ على مكانته داخل تلك الأوساط الاجتماعية من خلال استمرار الأفعال الاجتماعية التقليدية في المجتمع رغم كل التحديثات و الممارسات الحضرية التي اكتسبها المجتمع، من خلال محافظة المجتمع على المعايير القيمية المحددة لمكانته المترسخة في الضمير الجمعي للمجتمع من خلال الدين و التنشئة الاجتماعية والموروث الاجتماعي المتوارث عبر الأجيال.

المعايير الجديدة لمكانة الأفراد في المجتمع الحديث تعتبر من المحددات التي تزيد من مكانته فالمعايير السوسيواقتصادية (كالرفاه المادي و المركز الاجتماعي الجيد و الصحة الجيدة والمستوى التعليمي المرتفع)...هي عوامل امتداد للقوة و النفوذ التي تمكن الفرد من أن يمارس سلطته في إطار واسع النطاق، أو هي عوامل جذب للاحترام و الوقار، فهي تحافظ على تلك المكانة التي كانت لديه كأعلى سلطة داخل الأسرة في القديم. كما يجب علينا الإنتباه لعاملين متناقضين ظاهريا:

- البعد الحداثي الذي يتطلب مسايرة للركب و الإنسجام مع متطلبات العصر
- البعد الثقافي الذي يدعو إلى إحياء التراث و المحافظة عليه.

و نحن في زمن يروج فيه كثيرا لمقولة الصراع الثقافي الذي لا مكان فيه لثقافة لا تملك القدرة على الإقناع و الإنتشار، مستشهدين بقول "مالك بن نبي بأن الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي:الأخلاق والجمال و المنطق العملي والصناعة"38

و نحن كمسلمين نجد "الإسلام بحد ذاته مشروع تحديثي أو حداثي غير القيم و المفاهيم والثقافة السائدة وحرك أتباعه نحو التحرير والنهضة و التغيير ورفض التقليد والإتباع غير الواعي للموروث والتقاليد"39 علينا الإهتمام به.

[38] عزام أبو الحمام،**الإعلام الثقافي،جديات و تحديات**،دار أسامة للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،الأردن،2010،ص77.

[39] صابر حارص،**الإتصال الإعلامي و تحديث المجتمع العربي**، دار العربي للنشر و التوزيع،الطبعة 01، القاهرة،2009،ص 41.